الفصل الثلاثون

العرب فى الأندلس (تتمة)

٨٧١ — ١٠١٦ هـ ، ١٤٦٦ — ١٦١٠ م

الكفاح الأخير — حصار غرناطة — تسليم غرناطة — غدر فرديناند وأزابلة — اضطهاد مسلمى أسبانيا وإخراجهم — العرب يفقدون أسبانيا

تولية أبى الحسن على

لما توفى ابن إسمعيل خلفه ابنه الأكبر على الملقب بأبى الحسن ، وكان بطلا شجاعا موهوباً ، ولو كان يؤازره شعب موحد لضارع أسلافه فى البهاء والفخامة ولحافظ على مملكته ، ولكن الواجب الذى كان ملقى على عاتقه فى تلك الظروف السيئة وانقسام شعبه ، كان يدعو إلى اليأس والقنوط ؛ ومما زاد فى قرب وقوع الكارثة والخراب إهماله شؤون الدولة وسرعة غضبه وثورة ابنه .

وفى سنة ١٤٦٩ تزوج فرديناند من أزابلة فتوحدت بهذا الزواج قوات قشتالة وأراغون وليون وأصبحوا تحت راية واحدة ، وكان الزوجان متعصبين يريان من واجبهما الدينى حرق الهراطقة الكفار ، فاستقر رأيهما على وضع حد للبقية الباقية من المدنية فى أسبانيا ، فترقبا بصبر ذاهب انتهاء مدة الهدنة التى كانت قد عقدت بينهما و بين أبى الحسن بناء على طلبهما للاضطرابات التى كانت ناشبة وقتئذ فى بلديهما ؛ غير أن ملك غرناطة برفضه دفع الجزية التى كان متفقاً عليها بين والده و بينهما أثار حقدهما وخلق بذلك الفرصة التى كانا يتوقان منذ أمد طويل إلى انتهازها ، فما كادت تنتهى مدة الهدنة حتى بدأ أبو الحسن نفسه بالزحف على مدينة الزهراء فى يوم عاصف ماطر ، ففتح باستيلائه على هذه المدينة هُوة سحيقة من التعصب والوحشية انهارت سيولها عليه وعلى مملكته ، ولم يحل

دون صب جام غضب فرديناند وزوجته على غرناطة إلا المنازعات التى كانت ناشبة فى شمالى أسبانيا . وقد رأى المفكرون العرب فى طيش الملك نذيراً للخراب وأعرب أحد الفقهاء فى حضرة الملك عما يجيش بصدورهم بقوله : « إن قصور الزهراء سوف تنهار على رؤوس المسلمين ، وإن أيام دولة المسلمين فى أسبانيا أصبحت معدودة ! » . ولما رأى ملك قشتالة صعوبة الاستيلاء على الزهراء حيث تقيم قوة كبيرة من جيش أبى الحسن ، هجم فجأة فى الليل على مدينة الحما الواقعة على سفح الجبل على بعد خمسة عشرة فرسخاً من العاصمة ، وكانت فى موقعها تحمى الطريق الممتد إلى منطقة غرناطة ؛ ولكن القشتاليين بالرغم من دفاع المدينة المستميت استولوا عليها عنوة ، وأعملوا السيف فى رقاب أهلها ، وأسروا النساء والأطفال الذين كانوا قد اعتصموا بالجامع . وهكذا سقطت الحما التى كانت يوما ما مدينة زاهرة فاستحالت الآن إلى مقبرة شاسعة ، وأصبحت شوارعها الجميلة التى كانت متنزهاً لشعب سعيد أكواماً تكدست فوقها أشلاء الموتى فاتضح بسقوط الحما مصير غرناطة وارتفع عويل المسلمين على ما خبأ لهم القدر فصبوا لعناتهم على مسبب هذه الكارثة ؛ ولكن أبا الحسن لم ييأس ، فقام بمحاولتين للاستيلاء على المدينة انهزم فى المحاولة الأولى ، وكاد ينال النصر فى الثانية لولا أن جاءته الأخبار بنشوب فتنة فى العاصمة بقيادة ابنه أبو عبد الله محمد[1] ، فتوقف الجيش عن مواصلة القتال وظهرت مساوئ تعدد الزوجات فى تلك الأزمة الطاحنة ، وتقرر مصير المسلمين الأسبانيين ، إذ كان لأبى الحسن زوجتان ، واحدة بنت عمه واسمها عائشة والأخرى أسبانية (مسيحية) من بيت كريم واسمها أزابيل ويسميها العرب بالزهراء ، وكان أبو الحسن يميل إليها ولأطفالها فحسدتها عائشة الزوجة الثانية ، وحرضت ابنها أبا عبد الله على الخروج على أبيه ، ورشت قسما من الحامية وبعض رجال الدولة ، فنادوا بابنها الفتى ملكا

(١) واسمه بالأسبانية بو أبدل ويسميه أهل غرناطة بالسلطان الصغير .

عليهم ، وفى الحال أسرع أبو الحسن إلى غرناطة التى أصبحت الآن ميداناً للقتال بين الطرفين ، وعقد مع ابنه مهادنة قصيرة تمكن على أثرها الملك الكمل أن ينقذ مدينة (لوجا) أو لوشا التى كان يحاصرها القشتاليون ويستولى على مدينة كانيت ، غير أن هذا النجاح لم يكن له فائدة تذكر ، إذ علم أن ابنه الثائر نجح فى الاستيلاء على قلعة الحمراء ونادى بنفسه ملكا على كافة غرناطة ، وعندئذ ارتد أبو الحسن إلى مالقه ، حيث كان أخوه أبو عبد الله محمد الملقب بالزغال والياً عليها ، ولم يبق فى قبضته غير مدينتى وادى آش والبسطة .

أراد فرديناند وإزابلة أن يثأرا للهزيمة التى لحقت بجيوشهما بظاهر مدينة لوكسا ، فسيرا قوة كبيرة على ولاية مالقة ، ونجحا نجاحا كبيرا فى بادئ الأمر ، « إذا جاز لنا أن نطلق كلمة النجاح على حرق المزارع ، وقطع أشجار الزيتون والكروم ، وتخريب القرى المزدهرة ، وسلب المواشى ، وذبح السكان الآمنين »[1] . وبينما كان جيش قشتالة منهمكا فى أعمال التخريب على هذا النحو ، مطمئناً آمناً ، هاجمه الزغال وقائده رضوان فى الجبال الشرقية وأوقع به مذبحة فظيعة ، ولم تكن قضية العرب قد بلغت حدا يحمل على اليأس والقنوط ، غير أن حادثة جديدة وقعت فى تلك الأثناء كان سببها « أبو عبد الله » فغيرت مجرى الحوادث ، وذلك أن هذا الخائن السيئ الحظ ، أراد أن ينافس عمه « الزغال » الذى كان اسمه الآن على أفواه جميع أهل غرناطة ، فهجم على مدينة لوسينا التابعة لحكومة قشتالة ، ولكنه أصيب بهزيمة مروعة ووقع أسيرا فى أيدى الأعداء ، وفى تلك المرحلة كان أبو الحسن قد تنازل عن العرش لأخيه الزغال وانسحب مع عائلته إلى مدينة اللورة ، ثم انتقل منها إلى المونيكار حيث توفى بعد مدة قصيرة .

رأى فرديناند وإزابلة فى أسر أبى عبد الله معونة إلهية ساقتها إليهما

---

(١) كوندو .

الأقدار لنجاح قضيتهما ، إذ وجدا فيه أليق أداة لبث بذور الشقاق فى غرناطة وتقسيم قواها العسكرية إلى شيع وأحزاب ، فتقوضت بذلك دعائم تلك المملكة التعسة . ولما كان أبو عبد الله متقلباً ضعيف الرأى ، صغير النفس ، فقد غدا آلة صماء فى أيدى فرديناند الحاد الذكاء ، الذى « حالما شعر بأنه هو والملكة قد استوليا على إرادة ذلك الأمير المنكود ، أرسله إلى غرناطة مجهزا بالرجال والأموال والعتاد ، فاستطاع أبو عبد الله بمساعدة القشتاليين — الذين كان يتألف منهم حرسه — وعدد من أهل غرناطة الذين رشتهم عائشة ، أن يستولى على ضاحية البزين ، وهكذا وقعت غرناطة مرة أخرى فى حرب داخلية طاحنة ، فاقترح الزغال على ابن أخيه أبى عبد الله أن يحكما البلاد سوية ويشتركا فى صد العدو المشترك ، ولكن هذا الفتى المتهوس الضعيف رفض كل اقتراح . وانتهز ملك قشتالة فرصة هذا الكفاح بين الزغال وأبى عبد الله ١٤٦٦— ١٦١٠م واستولى بالتتابع على اللورة وقصر بونيله ورنده ، وبعض المدن الأخرى المهمة ، أما لوكسا التى عجز جيش قشتالة عن فتحها من قبل ، فقد أذعنت فى سنة ١٤٨٦ بالتسليم ، وبعد سنة سقطت مدينة مالقة ؛ ولما حاول الزغال إنقاذ المدينة صمد له أبو عبد الله الذى كان من الدناءة بحيث هنأ فرديناند على احتلاله إياها ، ومع أن أهالى تلك المواقع سلموا على شرط صيانة أرواحهم ، إلا أن فرديناند حالما استولى عليها لم يتردد قط فى نكث عهوده معهم ، وأمر بادخال جميع السكان فى ربقة العبودية أو نفيهم من ديارهم ، ولم يبق فى أيدى الزغال غير بايزه وأليره وفيره وخوسكار وقليل من المدن الأخرى ، وقد تحالف فرديناند سرا مع أبى عبد الله على أن يعطيه كافة البلاد التى يستولى عليها من عمه الزغال ، وركن هذا الخائن البائس إلى تلك المواعيد الخلابة ، خشية أن يطرده عمه من غرناطة لو هو أمسك عن مساعدة ملك قشتالة ، وهكذا تمكن فرديناند من الزحف بقواته الكاملة على بايزه ؛ ولما يئس الزغال استنجد بملوك أفريقية

المسلمين الذين كانوا يتقاتلون مع بعضهم البعض فلم يلبوا طلبه ؛ ومع ذلك فقد دافع المسلمون دفاعا مستميتاً ، ونجح الزغال عدة مرات فى إجلاء جيش قشتالة عن أسوار عاصمتـه ؛ غير أن فرديناند بمهارته العسكرية اضطر المدينة إلى الإذعان بالتسليم ، ولـكن القشتاليين ، على ما جرت به عادتهم ، نقضوا الشروط التى كانوا قد عقدوها مع أهل المدينة وطردوهم من منازلهم ، واستولى الملك والملـكة الصالحان على أموالهم ومواشيهم ، واستطاعا ، بفضل المـال والرشوة ، أن يستوليا شيئاً فشيئاً على قلاع مدن البُشرات ، وما هو إلا أن التجأ الزغال الذى كان يحارب إلى ذلك الحين محاربة الأبطال إلى تقديم خضوعه إلى فرديناند و إزابلة اللذين أقطعاه منطقة أندارا كس ولقباه بالسلطان ، ولـكنهما لم يسمحا له بالبقاء مدة طويلة ، إذ أمرا بنفيه بعد سنة إلى أفريقية ؛ وعندئذ لم يصبح فى أيدى المسلمين غير غرناطة وضواحيها ، ولم يلبث أبو عبد الله الذى فرح بسقوط الزغال أن أدرك خطأه فى الاعتماد على أصدقائه المسيحيين ، فـما كاد الزغال يرحل إلى أفريقية حتى أمر « فرديناند » عبـد الله بتسليم غرناطة ، ولمـا رفض طلبه أعمل السيف والنار فى منطقة غرناطة الخصبة ، وحول منطقة فيغا إلى أرض بلقع ، ثم ارتد منها إلى قرطبة ، وأصبح القتال الآن أروع من ذى قبل ، إذ كان يتوقف على هذه المعركة مصير المسلمين الذين هبوا بزعامة موسى بن أبى الغزان من أشهر فرسانهم إلى القتال بعد أن شدد عزائمهم ، وأخذوا يزحفون على بلاد العدو ونجحوا فى الاستيلاء على بعض المواقع الأمامية ، غير أن فرديناند هجم على سهول غرناطة فى أربعين ألف راجل وعشرة آلاف خيال وشرع من جديد يعيث فى البلاد بالنار والسيف ، فأتلف المحاصيل الزراعية والأشجار المثمرة وأحرق المنازل وذبح السكان الآمنين ، وشدد الحصار على آخر معقل من معاقل المدنية فى أسبانيا ، فاعتصم أهل فيغا بالعاصمة وصمدوا للعدو عشر سنوات وناضلوه على كل شبر من أرضهم ، وكانوا يواجهونه باستبسال

حصار غرناطه

عظيم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، غير أنه لم يبق لهم الآن سوى العاصمة التى تحصنوا داخل أسوارها فى يأس ممض ، وقاوموا العدو ردحاً من الزمن ، ونظراً لسهولة المواصلات بين العاصمة والبُشرات كانت ترد المؤونة إلى المحصورين من منطقة سيرانيفادة ؛ وفى تلك الأثناء أخذ موسى يناوش الأعداء ويقتل منهم يوميا عدداً من أحسن جنودهم مما أثار سخط فرديناند الذى أمر بتشديد الحصار على العاصمة فضاق أهلها ذرعاً بذلك ؛ ولم يكد يحل شهر صفر حتى عمت المجاعة وحاول الأهالى للمرة الأخيرة الذود عن حريتهم ، غير أن الحامية كان قد أنهكها الجوع ، فاستقر رأيهم على التسليم بعد أن فتكت المجاعة بالسكان فتكا ذريعاً وعملت فيهم ما لم تعمله القوة المغيرة طوال هذه السنين ؛ وفى الحال أرسلوا وفداً إلى معسكر قشتالة لوضع شروط التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة تم الاتفاق على الشروط التالية ، وهى : إذا لم ترد المسلمين نجدة من البر أو البحر خلال شهرين سلموا المدينة للمسيحيين على أن يؤدى السلطان والقواد والوزراء والأعيان وجميع أفراد جيش المسلمين يمين الطاعة والولاء لملك قشتالة ؛ وأن يمنح أبو عبد الله بعض الأملاك فى البكراس ؛ وأن يؤمن ملك قشتالة المسلمين على أرواحهم وأملاكهم وأسلحتهم وخيولهم دون قيد أو شرط ؛ ويسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية ، وأن تبقى جوامعهم ومؤسساتهم الدينية مصونة سالمة ؛ وأن يحتفظ المسلمون بعوائدهم ولغتهم وزيهم ، وأن يفصل فى خصوماتهم قضاة من بنى جلدتهم ، وأن تنظر فى معاملاتهم مع المسيحيين هيئة مختلطة من القضاة المسيحيين والمسلمين ؛ وألا يجبروا على دفع ضريبة فوق الضريبة الرسمية ؛ وألا يدخل المسيحيون عنوة منازل المسلمين ؛ وأن يفك سراح أسراهم ، ويسمح للذين يرغبون فى الهجرة إلى أفريقية بالسفر فى خلال مدة معينة ، وأن تنقلهم سفن قشتالة دون استيفاء أجور علاوة على أجور السفر الاعتيادية ، وألا يمنع أى مسلم بعد انقضاء المدة القانونية من اللحاق بإخوانهم المهاجرين إذا دفع أجرة السفر وعشر أمواله المنقولة ؛ وألا

يضطر أو يعاقب المسلم بجريمة غيره ؛ وألا يجبر أى مسيحى اعتنق الإسلام من قبل على التخلى عن إيمانه الجديد ، وإذا رغب مسلم فى اعتناق المسيحية يجب أن يناقشه قاض مسلم بحضور حاكم مسيحى بضعة أيام ؛ وأن يحرم على الجنود المسيحيين إساءة معاملة المسلمين ، وأن تحمى الحكومة المسلم الذى يرغب فى السفر أو السكنى بين المسيحيين وأن تحافظ على أملاكه وسلامته ، وألا يحمل المسلمون علامات فارقة كما يحملها اليهود .

ولم يعترض على هذا الإذعان والتسليم غير موسى الذى حذرهم من الاعتماد على مواعيد القشتاليين الكاذبة ، وحرضهم على أن يهبوا دفعة واحدة لفك الحصار ومما خاطبهم به : « إن الموت أعذب من الذل والإسار ، وإن من المحال أن يفى القشتاليون بوعودهم لأنهم متهيئون للبطش بالمسلمين ، ثم قال : إن الموت فى ساحة الوغى أعذب مما أعدته لنا الأقدار من إهانة وتحقير وإذلال ونهب وتدنيس للجوامع وانتهاك لشرف النساء ، ثم ختم كلامه قائلا : سيكون مصيرنا الاضطهاد والظلم والاستبداد لأن الأعداء آلوا على أنفسهم أن يستأصلوا شأفتنا » . ولما رأى موسى أن كلماته لم تستنهض هم الحاضرين الذين جاءوا ليسلموا المدينة نظر إليهم نظرة احتقار وامتطى صهوة جواده ثم خرج من باب المدينة لا يلوى على شىء ، ويقال إنه لاقى فى طريقه جماعة من الفرسان المسيحيين وكاد يتغلب عليهم لولا أنه سقط من على ظهر جواده ، ولكنه مع ذلك أبى أن يستعطفهم فظل يمعن فيهم وهو جاث على ركبتيه حتى وهنت قواه فألقى بنفسه فى النهر وابتلعته الأمواج على الفور .

وكان المسلمون قد بعثوا بالرسل يستنجدون سلطان مصر والروم ، غير أن مدة الإنذار كانت قد مضت دون أن يلبى أحدهم داعى الغوث ، وفى ثلاثة كانون الثانى سنة ١٤٩٢ استولى ملك قشتالة على غرناطة ، وفى الواقع كانت ساعة استبدال الهلال بالصليب على قلعة غرناطة من أهول الساعات التى مرت

على المسلمين ، إذ كانت نذيراً بالقضاء على الحياة الفكرية والنشاط الصناعى فى بلاد الأندلس .

وبعد هذه المأساة الدامية سار أبو عبد الله — أو بو أبدل كما يسميه الأسبان — مع أسرته فى الطريق قاصدين البكراس حيث كان ينوى الإقامة فلما وصل جبال بادول ألقى نظرة طويلة على غرناطة ثم أجهش بالبكاء فقالت له أمه المشهورة بالدسائس : لماذا تذرف الدمع كامرأة على فقد ما لم تستطع الدفاع عنه كرجل ! وهنالك فى « اندارة » عاش قليلا من الزمن ، غير أن فرديناند رأى وجوده فى أسبانيا خطراً يهدد مملكته ، وفى الحال أمر بنفيه إلى أفريقية فقصد الأمير البائس مدينة فاس وظل بها حتى وافته منيته سنة ١٥٣٨ م[1] .

وفاة أبى عبد الله

لم ينو فرديناند الورع ولا إزابلة الصالحة التقيد بشروط المعاهدة ، إذ لم ينقض طويل وقت على المسلمين حتى تحقق لديهم قول بطلهم الشجاع ، وبالأخص عند ما شاهدوا ما حل باليهود الذين عاشوا فى رخاء ورفاهية فى ظل الحكومة العربية وأصبحوا الآن هدفا لأطماع ملوك قشتالة . وفى سنة ١٤٩٣ بينما كان فرديناند الذى كان يخفى سياسة الخيانة والغدر تحت رداء الدين والتقوى ويسرف فى وعوده للمسلمين أصدر مرسوما يخير فيه اليهود بين التنصر والهجرة ، وطفق يمعن فى اضطهادهم وتعذيبهم وحرقهم ؛ ثم بدأ يسحق العهود التى كان قد قطعها على نفسه مع المسلمين ، ولم يدخر وسعاً فى استعمال جميع وسائل الوحشية ، فحظر عليهم اتباع قوانينهم الشرعية وتأدية طقوسهم الدينية ، وأكره الكثير منهم على التنصر ففاضت قلوبهم لوعة وسخطا ، وشق أهل البزين عصا الطاعة ، غير أن الحكومة اعتزمت هذه المرة سحق الثورة بما تملك من قوة فامعنت فى التقتيل والتخريب . وفى سنة ١٤٩٨ عرضت عليهم إما التنصر أو الإعدام ، فاستكان

(١) ترك ولدين اسمهما يوسف وأحمد ، وقد زار أحد كتاب العرب تلك المدينة فى القرن السابع عشر فرأى أحفادهما فى غاية من الفقر والعوز يعيشون على الصدقات التى كانوا ينالونها من إدارة الأوقاف .

البعض ، ولكن الأغلبية تمسكت بدينها واعتصمت بجبال الألب ؛ فأرسلت الحكومة إليهم جيشاً مزقهم شر ممزق ، ونسف الجامع الذى كان قد التجأ فيه النساء والأطفال ، وبالرغم من جميع هذه النكبات التى حلت بهم ، فقد دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وفى سنة ١٥٠١ هزموا الأعداء فى جبل بلنسيه ، فصدر قرار بنفيهم إما إلى مراكش أو تركيا أو مصر ، ومصادرة أملاكهم المنقولة وغير المنقولة ، وخيرت البقية الباقية منهم بين السيف وبين اعتناق المسيحية ؛ ومع أنهم أكرهو على التنصر اكراهاً ، فقد ظلوا فى قرارة نفوسهم مسلمين مخلصين ، يواظبون على الصلوات الخمس ، ويؤدون الوضوء فى أوقاتها[1] ، وكانوا يعتنون جد العناية بغسل أطفالهم من الماء المقدس حالما يبتعدون عن أعين رجال الدين ، وكانوا يعقدون النكاح سرا بعد أن تجرى لهم المراسيم الكنسية . ولو كان ثمت حكومة شريفة تحترم العهود التى قطعتها على نفسها عند الاستيلاء على مدينة غرناطة ، لما أقدمت على إثارة خواطرهم بهذه الصورة الشنيعة ؛ غير أن ملوك أسبانيا لم يكونوا من شرف النفس والأمانة بحيث يوفون بعهودهم مع الموريسكيين ، وقد وضعت الحكومة هؤلاء « المسيحيين بالاسم » تحت رقابة شديدة ، وكانت أية تهمة توجه إلى أحدهم كفيلة بأن توقعه تحت طائلة العقاب وتعذيب ديوان التحقيق ، فسطت محارق ديوان غرناطة وقرطبة وأشبيلية لتلتهم يومياً عدداً من الرجال والنساء والأطفال ، ولأجل أن تحول الحكومة دون قيامهم بأية ثورة أصدرت قانونا جديداً تحرم فيه حمل السلاح على الموريسكيين ؛ وهكذا قدر على أخلاف الشعب الذى احتل أسبانيا أن يتحمل الاضطهاد بصبر ممض . وفى سنة ١٥٦٨ أصبحت حالتهم لا تطاق ، إذ لم يكتف المسيحيون بتدمير أملاك المسلمين فحسب ، بل أخذوا يعاملونهم معاملة الأرقاء فى الأراضى التى كانوا حكامها ، « وحاول

(١) المقرى .

المسيحيون جهدهم استئصال شأفتهم والقضاء على آخر المظاهر والتقاليد التى تربطهم بماضيهم وتراثهم القومى » . وكان فيليب الثانى المتهوس الأخرق متربعاً فى تلك الأثناء على عرش أسبانيا ، وكان رئيس أساقفة غرناطة لايقل عنه تهوساً وبربرية ، فحرضه على إصدار قانون يحرم عليهم أن يتكلموا العربية أو يتعاملوا بها ، وألزمهم بلبس القبعات وارتداء الملابس الأوربية ، كما حظر عليهم الاستحمام واتخاذ الأسماء العربيــة ، وارتداء الثياب الوطنية ، ومزاولة التقاليد العربية والمظاهر القومية ، وعدم استعمال سوى القشتالية فى التخاطب والتعامل ، وعندئذ بلغ اليأس بأحفاد المنصور ذروته ، فالتجأوا إزاء هذا العسف المضنى إلى السلاح مؤثرين الموت مسلمين مخلصين لدينهم ، ولـكن كفاحهم كان لا أمل فيه ولا رجاء . وبعد أن دامت الثورة ثلاث سنوات اجتاحهم دونجوان بجيوشه ، فأمعن فيهم التقتيل والتخريب وذبحهم ذبح الأنعام ، فقتل الرجال والنساء والأطفال على حد سواء ، وغدت قرى ووديان البكراس مقابر شاسعة لعظام المسلمين ، حتى إن الذين التجأوا إلى الـكهوف لم ينجوا من هول المذبحة ، إذ أشعل المتهوسون النار على أبواب المغارات وقتـلوا من بداخلها خنقاً بالدخان ، وبالرغم من كل هـذه المذابح المروعة ظلت بقية منكودة من هؤلاء العرب المستنصرين أو كما يسمونهم بالموريسكيين فى بلنسية ومورسية .

وفى سنة ١٦١٠ م أنجز فليب الثالث العمل الذى كان قد بدأ به والده ، وهو نفى زهاء نصف مليون من هؤلاء البائسين إلى أفريقية ، فأمر بإنزالهم على الساحل . أما سكان الشمال وكان لا يقل عددهم عن مائتى ألف نسمة ، وهم البقية الباقية من ذلك الشعب القوى الباسل ، فقد طردوا من غير ما شفقة ولا رحمة إلى فرنسا حيث اضطر من بقى منهم حياً بعد مذابح الأسبان وأهوال الطريق إلى النزوح إلى البلاد الإسلامية . وبلغ عدد الذين طردوا من أسبانيا

منذ سقوط غرناطة حتى عهد الملك فليب الثالث ثلاثة ملايين نسمة ، وهكذا اختفى من أرض الأندلس شعب ذكى مستنير شجاع بعث بمجده واجتهاده الحياة فى أسبانيا التى كانت تئن تحت نير القوطيين ، فحول بلاد الأندلس جنة فيحاء وحمل مشعل العلم والعرفان ، بينما كانت الممالك حولها تتخبط فى دياجير الجهل ، كما نشر الثقافة وبث المدنية ووضع أسس الفروسية ، بل لا نعدو الحق إذا قلنا إن الشعب العربى خلق أوربا الحديثة خلقاً . والآن يحق لنا أن نتساءل ما الذى استفادته أسبانيا من طرد العرب ؟ وجواب ذلك أن الأندلس الجميلة التى ظلت بضعة قرون موطن الثقافة ومركز العلوم والفنون تدهورت ثانية إلى حالة العقم وأصبحت عاملاً على تدمير الثقافة والأخلاق ، فاكتنفتها وحشية أبدية بعد أن كان العرب قد أضاءوها بنورهم ، وفى الواقع لم تتغير الطبيعة إنما الذى تغير هو الشعب الأسبانى وديانته . ومع ذلك فلا يزال بعض آثار العرب تعلو الخرائب التى ملأت تلك البلاد المقفرة ، ومن وسط التماثيل والخرائب الصامتة يرتفع صوت الحق ينادى بمجد وحضارة العرب المنهزمين ، وانحلال وتدهور الأسبان المنتصرين[1] . ويصف كاتب أوربى آخر الخسارة الفادحة التى حلت بأسبانيا وكان سببها التهوس الدينى فيقول : « لم يعرف الأسبان عندئذ ماذا كانوا يفعلون ، إذ أنهم فرحوا أشد الفرح وطربوا أشد الطرب بنفى العرب ، وذلك لأنهم سئموا الحياة الرتيبة ، وأخذ « لوب دى فيغا » يغنى أغنيته المثيرة التى مطلعها « الحكم العادل » ، ولم يدروا أنهم قتلوا إوزتهم الذهبية » . لقد كانت أسبانيا منذ قرون مهد المدنية ومركز العلوم والفنون وكافة ضروب النشاط الفكرى ، ولم تبلغ دولة فى أوربا ما بلغته أسبانيا على أيدى العرب من ثقافة ورقى ، فتضاءلت عظمة عصور فرديناند وإزابلة وشارلس الخامس إزاء ما بلغته دولة

(١) المسيو كوندو وقد كان أسبانيا .

العرب من البهاء والفخامة ، وظل نور أسبانيا بعد نفى العرب ساطعاً برهة من الزمن ، ثم سادت فى أرجائها ظلمة حالكة ؛ وأعظم ذكرى لهذا المجد الغابر هى تلك الأراضى القاحلة التى استحالت إليها أسبانيا بعد أن كانت فى عهد المسلمين جنة ملآنة بأنواع المزروعات والكروم ، وذلك الجهل المطبق المخيم على أهلها بعد أن كانت مثالا للذكاء والعلم ، وعلى الجملة فإن أهل أسبانيا المسيحية يستحقون ما وصلوا إليه من التدهور والانحطاط .